

(الفصل الثانی)

جھود الحکیم العلمیة وآثاره

- ❖ جھود الحکیم فی التفسیر
- ❖ جھود الحکیم فی الفقہ
- ❖ جھود الحکیم فی علم الکلام
- ❖ آثار الحکیم و آثاره

obeikandi.com

المبحث الأول

جهود الحكيم فى التفسير

لقد كان الحكيم الترمذى ، واسع الثقافة، غريز المادة، ارتحل لطلب الحديث، وجاب الآفاق فى خراسان، والعراق، وحدث بنيسابور وأخذ عن أئمة المحدثين، وكبار العلماء، ثم أنه لقى أكابر الصوفية وأطلع على جميع ثقافات عصره، فامتدت ثقافته إلى جميع فروع المعرفة^(١).

وقد بدأ اهتمام الحكيم بالقرآن منذ رحلته إلى الحج التى تحدث عنها فى رسالته، «بدو شأن أبى عبدالله» حيث سأل الله سبحانه وتعالى عند الملتزم أن يرزقه حفظ كتابه، فرجع وقد بدا عليه الحرص على حفظ القرآن، فأقامه ذلك بالليل، وكان لا يميل من قراءته، وقد يظل فى قراءته إلى الصباح حتى وجد حلاوة ذلك^(٢).

وركز الحكيم فكره فى فهم القرآن الكريم، والتعمق فى استخلاص أسرارهِ ومعانيهِ الظاهرة والباطنة، وقد انعكس هذا الفهم على آثار الحكيم كلها فى شتى فروع المعرفة التى ناقشها فى كتبه ورسائله المتعددة.. وكانت حصيلة هذا الاهتمام بالقرآن عدداً من المؤلفات بين كتاب ورسالة تتصل بالقرآن الكريم، وتكشف عن جوانب مهمة من فهمه لكتاب الله عز وجل^(٣) ومن هذه المؤلفات:

(١) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة «تحصيل نظائر القرآن» للترمذى ص ١٠، ط مطبعة السعادة بمصر.
(٢) الحكيم الترمذى، «بدو شأن أبى عبدالله» ص ١٤١ بتصرف.
(٣) الدكتور الجيوشى «الحكيم الترمذى ومنهجه فى تفسير القرآن» الضياء عدد ١٣، ص ٤، ص ٩٨ ديبى.

١ - تفسير القرآن الكريم ذكر الهجویری فی «كشف المحجوب» : أن الحكيم كان قد بدأ تفسيراً ولم يف العمر بإتمامه، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذي عمله^(١).

٢ - كتاب «الأمثال من القرآن والسنة» : والترمذی فی هذا الكتاب ينهج منهجاً فريداً في استعراضه لظاهرة خاصة في التعبير عن المعاني، تعتمد إلى ضرب الأمثال للإيضاح والبيان^(٢)، وجاء في مقدمة الكتاب: «أن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء، وخفيت عليه الأشياء، فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم، لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم»^(٣).

ومن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها، ليعقلوا بها، فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة^(٤).

٣ - كتاب «تحصيل نظائر القرآن» الذي يبين لنا أن الحكيم أجاد في الإحاطة باللغة العربية وفقهاها. وأنه صاحب منهج في التذوق لمعاني القرآن الكريم^(٥).

٤ - تفسير آية لاشرقية ولاغربية، وقد تناول تفسيرها في أكثر من موضع من كتبه ورسائله^(٦) ولا زال هذا التفسير مخطوطاً في مكتبات العالم.

٥ - طائفة كبيرة من المسائل يتناول كل منها تفسير آية من القرآن الكريم ومعظمها موجود ضمن مجموعة «ليبزيج»^(٧).

(١) الهجویری ، كشف المحجوب ج ١ ، ص ٣٥٣ . وهذا التفسير لم يتم العثور عليه حتى الآن.

(٢) تم تحقيق هذا الكتاب بمعرفة الأستاذ على محمد البجاوی ، طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر.

(٣) الدكتور الجيوشي ، «الحكيم الترمذی ومنهجه في تفسير القرآن: الضياء» ع ١٣ ، ص ٩٨ ، س ٤ دبی .

(٤) الحكيم الترمذی ، «الأمثال من القرآن والسنة» ، ص ١ ، ٢ .

(٥) حقق هذا الكتاب «تحصيل نظائر القرآن .الأستاذ حسنى نصر زيدان وطبع سنة ١٣٩٠ هـ بمطبعة السعادة.

(٦) الدكتور الجيوشي ، الضياء ع ١٣ ، ص ٩٨ ، س ٤ . دبی .

(٧) مجموعة ليبزيج رقم ٢١٢ القسم العربي .

ومما يسترعى انتباه الباحث أن الحكيم الترمذى قد عالج فى كثير من مؤلفاته قضايا قرآنية وكان الحكيم يرى أن القراء ليسوا بحمله للقرآن - كما يحلوا لهم أن يدعوا ذلك - لأن حمل كتاب الله لا يكون بحمل حروفه وألفاظه فقط، يقول الحكيم: «فحملة القرآن من حمل معانيه قلبا، وحمل حروفه منطقا، وحمل كسوته صدرا، فإن القرآن كلام الله عزوجل، وعلى كل حرف منه نور، وذلك النور كسوته، فهو يطلب قلبا طاهرا، ونفسا صافية، وصدرا مشروحا، حتى يلج ذلك النور مع الحروف. فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة، وقف خارجا، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف - أعنى معانى الحروف علما - قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١) فالكتاب هو الحروف المؤلفة المنظمة بنظامه المتضمنة معانى كثيرة، والنور كسوته، والكتاب مشتق من الكتب وهو النظام، ومنه سميت الكتابة. والقراءة اتباع الحروف بعضها بعضا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (٢) فإذا وجد قلبا طاهرا حل به تبعه النور، فأضاء الصدر بمعانيه، وإذا لم يجده بقى «علم» الحروف وعلمه بلا نور، فيضئ الصدر بمعانيه، ولم تصر الأخبار كالمعانية» (٣).

«فحمل القرآن إنما يحتاج إلى قلب طاهر ونفس صافية، وصدر مشروح بالإيمان كى يدرك معانيه وكسوته. أما قراءة القرآن وأداؤه بغير هذا القلب الطاهر والنفس الصافية، والصدر المشروح، فإنما هى اتباع الحروف بعضها، وتحصيل لمعانى الحروف علما فحسب. فإذا لم يجد قلبا بهذه الصفة وقف خارجا، ولم يكن فى القلب إلا معانى الحروف» (٤).

فالقراء فى نظر الحكيم الترمذى يحصلون معانى القرآن علما فحسب وليس هذا هو المراد لأن المطلوب هو تحصيل معانى القرآن علما ومعرفة ولايتأتى ذلك إلا

(١) سورة المائدة، الآية رقم ١٥.

(٢) سورة القيامة، الآية رقم ١٨.

(٣) الحكيم الترمذى «الفروق ومنع الترادف» مخطوط ورقة رقم ٦٢، ٦٣ بلدية الاسكندرية رقم المخطوط ٣٥٨٦ج.

(٤) الاستاذ عبدالمحسن الحسينى «المعرفة عند الحكيم الترمذى» ص ٨٢.

بالقلب الطاهر، والنفس الصافية، والصدر المشروح وتلك هي الحقيقة التي تحتاج إلى اهتمام من حملة القرآن الكريم يقول الحكيم: «وإنما القرآن كلام الله سبحانه تكلم به، وكلم به عباده، وأنزل كلامه وحيا تنزيلا مع الكسوة، وكسوته نوره، وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(١)» فالنور الذي من الله تعالى هو أصل الأنوار، انشعب، فصار في كل حرف منه شعبة، ثم ألفها العالم الجواد الجليل بعلمه وحكمه وعدله، فقسمه بين الحروف، والكتاب هو الحروف المنظومة، والكتب النظام، ومنه سميت الكتيبة في الجيش، لأنها تتبع بعضها بعضا، فتلك الحروف المنظومة المؤلفة هي الكتاب ألفها رب العالمين بجوده ولطفه ثم بحكمته وعدله، ثم أجزاها من المجرى بعزة محشوة بتلك الحروف بأنوار المعاني ثم أنزلها برحمته تنزيلا متضمنا وحيه فيها المن واللطائف لإبراز المكنون والعطف على أحبابه، والفرائض والحدود للعبادة، والندارة والبشارة للمعونة، والهدى والبيان الشافي لما في الصدور من سقم النفس لاتخاذ الحجاة»^(٢).

ولعله مما يجب أن يتنبه له الدارسون، ويفطن إليه الباحثون «أن الحكيم الترمذى لم يلتزم منهاجا واحدا في تفسيره للقرآن الكريم فالمتتبع لما جاء عن الحكيم في التفسير يرى أن له أكثر من منهج وان كان الاتجاه الصوفي يغلب على أكثر ما كتبه في حقل التفسير.. فهناك التفسير الظاهري الذي جرى عليه أكثر المفسرين، ويمثل هذا المنهج في آثار الحكيم الترمذى، تفسير الآيات التي تناولها، وهناك التفسير الذي يركز على المعنى الباطن لكلمات القرآن الكريم، معتمدا على أن لكل كلمة من القرآن ظاهرا وباطنا.. وهناك التفسير القائم على استنباط أسرار الحروف التي

(١) سورة المائدة، الآية رقم ١٥

(٢) الحكيم الترمذى «مخطوط الأقباس والمغترين» ص ٥٩، ٦٠ المكتبة الظاهرية بدمشق، منه صورة بمعهد

المخطوطات رقم ٣٥١ تصوف.

تتألف منها الكلمات .. هذه هي الاتجاهات العامة التي نجدتها مبثوثة في رسائل الحكيم وكتبه في التفسير.. وهناك إلى جانب ذلك اتجاهات خاصة»^(١).

ولا يخفى أن هذه الاتجاهات ترجع إلى تذوق الحكيم لمعاني القرآن الكريم، والوجدان الدينى الذى يحس به ، مما جعله يتنقل من الموضوعية إلى التجربة العنيدية بالمشاهدة الروحانية من الباطن، بحيث يمكن أن نقول أن هذه التجربة والمشاهدة قد أصبحت لدى الحكيم هى الأصل المعتمد فى استنباط المعانى من القرآن..

«ولذا نجد أن الحكيم ينقض فكرة الترادف^(٢) فى الألفاظ ويرفضها رفضا قاطعا، معللا ذلك بأن اللفظ إذا كان مرادفا للفظ آخر، أدى إلى الاختلاف فى الفهم، فقد يعلم الإنسان لهذا المعنى لفظا، ويعلم الآخر لفظا آخر، فيختلف الفهم»^(٣).

وإذا كان بعض العلماء يرى أن الترادف يوسع دائرة التعبير، ويسهل مجال النظم والنثر، بالإضافة إلى أنه يعمل على تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند تساوى الأخرى «فإن الحكيم يرفض هذا، وينهج نهجا خاصا، يعرض فيه لطائفة من الألفاظ والعبارات التى يقال بترادفها، وذلك ليثبت نقيض ذلك»^(٤) وتقوم فكرة تأليفه لكتاب «الفروق ومنع الترادف» على أن الترادف بالذات أمر مستحيل بين لفظتين.. ولاشك أن الكتاب شاهد صدق على المجهود الذى بذله الحكيم للاستفادة من معطيات التحليل النفسانى واللغوى لدعم هذه القضية. «لقد كان الحكيم بارعا فى النفسانيات وعلى معرفة متعمقة واسعة باللغة وأسرار بيانها. لذلك جاءت القاعدة التى يبنى عليها نظريته فى منع الترادف تقول: يقال فى لفظتين أنهما مترادفتان إذ تدلان على عمل متشابه فى الظاهر، لكن الصحيح أن بين اللفظتين خلافا لا يمكن إدراكه إلا بتجاوز الظاهر إلى الباطن، أى إلى المصدر النفسانى الذى عنه ينبعث

(١) الدكتور الجبوشى، الضياء ع ١٣، ص ٩. ٩. ٤ دى الإمارات العربية.

(٢) الترادف هو دلالة عدة ألفاظ على معنى واحد كالحنطة والبر والقمح للحبة المعروفة.

(٣) الاستاذ حسنى نسر «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٤.

(٤) المصدر السابق ص ١٤.

العمل، على أن لهذا المصدر وجهين: أنه القلب الذى يولد الأعمال الصالحة من وجه، ومن الوجه الآخر أنه النفس التى لايسعها مادامت سقيمة إلا أن تولد أعمالا ناقصة. ومن الشواهد على ذلك فيما يقول الترمذى: هو التشابه فى الظاهر بين الحركات التى تنصاغ فيها «المدارة» و«المداهنة» فإن هاتين اللفظتين تعنيان كلاهما: المعاملة باللفظ والوداعة، لكن بينهما تباينا فى الباطن أى فى النية فإن صاحب «المدارة» صادق مخلص فى تلفظه، على حين أن صاحب المداهنة متملق مغرض.

والحكيم الترمذى لم يقف عند هذا الحد. بل راح يوضح أن الأسماء والألفاظ سمات المدلولات والحقائق. ويجب أن يكون هناك عامل مشترك ثابت بين صور اللفظ المتعددة. فاللفظ مهما تعدد معناه، فمرجهه إلى حقيقة واحدة تلك هى الفكرة الرئيسية التى قام عليها تأليفه لكتاب «تحصيل نظائر القرآن»^(١). والذى يثبت فيه الحكيم: أن الترادف وان وقع بين ألفاظ فلانها تدل على حالة نفسية واحدة تختلف بين وقت وآخر. فلم يعد اختلاف الوجوه بعد ذلك مأخوذاً من مجرد اللفظ بل من علاقة ذلك اللفظ بالنفس التى تخلع هى عليه معانيه..

ويبدو أن الحكيم الترمذى قد وقع فى يده كتاب «الوجوه والنظائر» الذى وضعه مقاتل بن سليمان. وخص فيه لفظة «الوجوه» بالألفاظ ولفظة «النظائر» بالآيات. وهذا يعنى أنه بين لكل لفظة قرآنية الوجوه المختلفة التى وردت عليها فى الآيات. فتصبح هذه الأخيرة ان وردت فيها اللفظة الواحدة بوجه واحد هى النظائر^(٢).

وكان مقاتل بن سليمان يذهب إلى منهج ثلاثى الوجوه، أما الوجه الأول فهو قراءة النص بحرفه ولفظه لاستخراج ماينطوى عليه هذا الحرف واللفظ من معنى معين وضعى مباشر.. وأما الوجه الثانى: فهو أخذ النص بقراءة تاريخية أى برده إلى القرائن التاريخية التى اكتنفت تنزيله أو سببته.. وأما الوجه الثالث: فإنه حمل

(١) انظر: الاستاذ حسنى زيدان، «تحصيل نظائر القرآن» المقدمة ص ١٤.

(٢) انظر : بولس نوبا «التفسير القرآنى والمصطلح الصوفى» ص ٥٢.

النص على معنى رمزي إشاري^(١). وفي كتاب «الوجوه والنظائر» بعض التأليف بين القراءة باللفظ، والقراءة بالتاريخ، والقراءة بالرمز والإشارة. وهذا التأليف يقوم على مجرد ترادف الألفاظ القرآنية فقط..^(٢).

وإذا كان صاحب كتاب «الوجوه والنظائر» لا يرى أن اللفظ يرد على وجوه كثيرة متباينة فهو في مكان بمعنى، وفي آخر بمعنى، وفي ثالث بمعنى.. وهكذا، مثلاً كلمة الذكر تأتي مرة بمعنى الصلاة، وبمعنى الخير، وبمعنى الوعظ، وبمعنى الشرف، وبمعنى القرآن.. فإن الحكيم الترمذي يرى: «أن هذه المعاني جميعاً، وتلك الوجوه المتعددة في الظاهر إنما مردها أصل واحد، تشعب عنه، وترد إليه^(٣) فكلمة «الذكر» هذه إنما مردها إلى أصل واحد، ثم تشعبت هذه الوجوه عنه^(٤) فإن كان للفظ القرآنية الواحدة وجوه متعددة من المعاني، فذلك عائد إلى تعدد الأحوال في النفس باختلاف الظروف والأوقات. ويعنى ذلك مثلاً: أن الألفاظ الشارحة الثمانية عشر التي تذكر للفظ «الهدى» في القرآن على أنها مرادفة له، لاتدل أصلاً إلا على معنى واحد تشير إليه لفظة «الميل» وحدها، أما المعاني المتعددة التي تؤخذ عليها كلمة «الهدى» فإنما ترتد إلى إطلاق هذه الكلمة على الأحوال النفسية المختلفة»^(٥).

لقد قام الترمذي اذن في كتابيه «منع الترادف» و«تحصيل نظائر القرآن» بعمل واحد ذي وجهين: فبين أولاً كيف تحل وحدة الترادف بين الألفاظ لتكشف عن فروق هذه الأخيرة. ثم ثانياً كيف ترتد كثرة المعاني في اللفظ الواحد إلى كثرة تساويها من ألفاظ لاتتألف إلا بعد تطبيقها على ما ينشأ في النفس ما أحوال. ثم أن النفس

(١) راجع : فريد جبر «التصوف والاستشراق» ص ٥٥ من مجلة «الباحث» العدد رقم ١٠ السنة الثانية ، فرنسا.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٣) الاستاذ حسنى زيدان مقدمة «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٤، ١٥.

(٤) الحكيم الترمذي «تحصيل نظائر القرآن» ص ٥١ - ٦٧، وانظر المقدمة أيضاً.

(٥) الحكيم الترمذي «تحصيل نظائر القرآن» ص ١٩ - ٢٤.

هى التى توحد بين ذلك كله وتتيح لنا تصنيفه بالرجوع إلى التجربة والمشاهدة من الباطن. (١)

لقد تمكن الحكيم من الجمع بين مقياس النفس واللغة، حيث أخذ اللغة قواعدا وفنونا وصهرها فى بوتقة التجربة الدينية بالمشاهدة من الباطن وفى ضوء هذا عالج الترمذى معانى ألفاظ بقاعدة الوجوه والنظائر، ونخص بالذكر ما تناوله الحكيم بتحليله وكان متصلا بالتصوف مثل ألفاظ : الهدى، والكفر، والشرك، والمرض، والشئىء السوء، والذكر، والخوف، والرجاء، والصلاة، والروح، والوحى، والقنوت، والصلاة، والطهور، والظن، والحكمة، والظلم، والتأويل، والدين، والإسلام، والإيمان، والشهيد» (٢).

ان الحكيم يعتمد عملا ذا وقتين : وقت أول يرد الحكيم فيه تلك المعانى المتعددة إلى وحدة نفسية هى أصلها، ثم فى وقت ثان يبين كيف تتفرع تلك الكثرة فى الوجوه عن ذلك الأصل أو ترتد إليه. وللقيام بهذا العمل لجأ الترمذى إلى طريقتين متداخلتين متساوئتين، فإنه تارة يستخدم التحليل اللغوى الذى مكنه منه اطلاعه الواسع على اللغة العربية وأسرار بيانها ثم أنه تارة أخرى يتصرف بالمعطيات المباشرة التى تمده بها تجربته السلوكية فى الطريق إلى الله. وبهذا كان عطاء الحكيم كبيرا..

(١) الأب فريد جبر «التصوف والاستشراق» ص ٥٨م الباحث، ع ١٠٤، س ٢ بيروت.

(٢) الحكيم الترمذى «تحصيل نظائر القرآن» تحقيق الاستاذ حسنى محمد زيان، ط السعادة.